من صميم الحياة :

فى حديقة الأزبكية

للأستاذ على الطنطاوى

كنت أمس عند الأستاذ الزيات فدخل علينا شاب فى نحو الثامنة عشرة عراقى ، فسلم وقعد صامتاً لا ينبس ، وجعل ينظر إلىّ كأن فى فيه كلاماً يريد أن يقوله ، ولكنه لا يحب أن يظهرنى عليه ، فهو يتبرم بمجلسى ، ويرقب قيامى ، فلما طال منه ذلك ، قال له الأستاذ : « تفضل ! » . فقال متردداً : « كنت أريد أن أقص عليكم قصتى ... علّها ... تكتب فى الرسالة ... ولكن ... سأجئ فى وقت آخر » ، وألقى علىّ نظرة لا أقول من نار ، ولكن من حزوف وكلمات تقول : « لولا هذا الرجل ! » .

فقال الأستاذ معرّفاً بى : « إنه فلان ، وهو من أسرة الرسالة فقص القصة أمامه ، فلعله إذا سمعها منك كتبها هو » . فلما عرفنى أشرق وجهه واطمأن وانطلق يقول ...

***

وصلت مصر للدراسة فى مدارسها فى أكتوبر الماضى ، وكانت تلك أول مرة أقدم فيها القاهرة ، وأرى فيها الدنيا ، أمضيت عمرى قبلها فى قرية لا تعرف إلا الجد ، ولا تقبل على غير الحرث والدرس ، ما فيها إلا الحلقة والحقل ، ما فيها سينما ولا ملهى ، ولا تاق فى طرقها امرأة سافرة ، ولا تصادف فى حقولها فتاة ، لم أخرج منها إلا مرة واحدة وأنا صغير زرت فيها النجف مع لدات لى فرأيتها مدينة عظيمة فيها كل ما يبهج ويهيج ، وسعدت فيها أياماً ، ثم عدنا إلى القرية ، وإلى حلقة الشيخ ، فقرأنا عليه كتب الدين والنحو والصرف والبلاغة ، ثم أقبلنا على الأدب ، نصبّ الشعر النزل ، كما يصبّ من النبع العذب الصادى الظمآن ، ونحفظه فى صدورنا كما يحفظ الشحيح الموسر ماله فى صندوقه ، فيكون لقلوبنا الفتية المشتعلة بالعاطفة حطباً يابساً يزيدها اشتعالا ، ولكنه يكون لقرائحنا مدداً ، ولألسنتنا ثقافاً ، ولنفوسنا صقالا ، وكانت لنا صبوات يحركها سواد المرأة وهى تخطر فى سوق القرية بعباءتها السوداء السابغة ، وظلّها من خلف زجاج النافذة ، وصوتها من وراء الباب ، لا نرى منها أكثر من ذلك ، فكان يثير سواكن هذه القلوب التى ما عرفت طريق الإثم ... وإن لم تخل القرية من آثمين (من الشباب) ومن آثمات .

— قلت : فما فائدة الحجاب ؟

— قال : إن الخير المطلق ليس من طبيعة هذه الدنيا ، والعبرة بالغالب ، فالحجاب خير فيه شر قليل ، ولكن السفور شر قد يكون فيه خير قليل ، وما الإثم فى العاطفة يفيض بها القلب ، أو الشهوة تضطرم بنارها الأعصاب ، ولكن الإثم فى عمل الجوارح .

وعاد إلى قصته ، فقال :

وكنت قد سمعت عن القاهرة أنها ، لا تؤاخذونى ، أنها كباريز ، بلد لذة وانطلاق ، وأنها عالم فيه من كل شىء ، فيه العلم والجهل ، والغنى والفقر ، والتقى والفجور ، والعفاف والفسوق ، يصنع كل فيها ما يريد ، لا يسأل أحد أحداً ما ذا يصنع ؟ ولا يقول له : دع ذا ، فانه حرام . وكف عن ذا فانه عيب ، وان ... إنى لأستحى والله أن أتكلم ...

قلنا له : قل يا أخى ، إنك تقول الصدق ابتغاء الإصلاح ، ولا حياء فى الإصلاح

ولج اليهود «المجانين» فى إثارة أحقاد البريطانيين . ولج العرب العقلاء فى الصمت والهدوء .. ثم إذا الانجليز يزدادون مع اليهود حنقاً ويزدادون للعرب مودة . وإذا مستر بيفن يعرض حلا يتفق مع ذلك الحقد ومع هذه المودة ... إنه يقترح السماح لمائة ألف يهودى بالهجرة إلى فلسطين فى خلال خمسة وعشرين شهراً ! أليس الرجل حانقاً على اليهود « المجانين » ؟!

سخرية ! سخرية لا تطاق ! ولكن الزعماء لا يزالون هناك يتفاوضون ويتباحثون ويتجادلون !

والآن أيها العرب . أما تزالون تنتظرون ؟ !

سيد قطب

فتردد قليلا ، وغض بصره . ثم قال :

— وأن النساء فى مصر ، استغفر الله ، ما هذا أعنى ، أعنى أن فى مصر نساء كثيرات أ... الحاصل أن الصورة التى كانت لمصر فى مخايلنا لم تكن صورة الأزهر بحلقاته ، ولا الجامعة بأبهائها ، ولا الجمعيات الإسلامية ، ولا النوادى الأدبية ، كلا . بل صورة (البلاج) ومشاهده ، والسفور والاختلاط ، وأن الصوت الذى يصل إلى قريتنا عالياً ليس صوت الرسالة والثقافة والكتاب ، فانه صوت خافت فينا ، ولكن صوت الاثنين والأخبار والمسامرات ، منها تكونت للقاهرة هذه الصورة ، فتخيلناها فتاة عابثة مستهترة ، لا شيخاً وقوراً صالحاً ...

أنا أقول لكم الحق ، فأرجو أن يتسع لسماعه صدركم ، ولا يضيق به حلمكم ...

ولما تقرر سفرى إلى مصر ، أرقت ليالى بطولها ، لا أستطيع الرقاد من فرط الانفعال ، ثم سافرت وكلما نقصت من الطريق مرحلة زاد شوقى مراحل ، وكلما اقتربت منها ابتعدت عن الصبر ، ولست أطيل عليكم ، فقد دخلتها ليلا ، فنزلت فى فندق فى العتبة الخضراء بلدىّ ، كانوا دلونى عليه من قبل أن أسافر ، اسمه (فندق البرلمان) ، فنمت نوماً متقطعاً تتخلله ثائرات الأحلام ، يؤرقنى ما أرقب من لذائذ هذه الجنة التى دخلتها بعد طول تشوق إليها فأنهض ساعة ، ثم يسحقنى السهر والسفر فأهجع أخرى ، حتى طلع الصباح .

ونزلت الساعة العاشرة ، فمشيت خطوات ، فوجدت فى وجهى حديقة الأزبكية ، وكنت قد قرأت فى (النظرات) للمنفلوطى رحمه الله ، أن الأزبكية ، ولا مؤاخذة ، هى المكان الذى تميل إليه نفس كل شاب ، لأنه أوسخ معابد الشيطان ، السوق التى تباع فيها اللذائذ ، فاقتربت منها وقلبى يجف كأنى مقبل على جريمة قتل ، وهل الزنا إلا أخو القتل ؟ وتمثل لى ماضى وأخلاق ، وطلعة الشيخ ، فارتددت وتلفت أنظر هل رآنى من أحد — لا تضحكوا أرجوكم فإنى أصف لكم ما وقع لى ، ومرّ وجال ، خيل إلىّ أن واحداً منهم يحدّق فىّ ، ويمدّ النظر إلىّ ويتبسم فشعرت أن دمى كله قد صعد إلى رأسى ، وأن أذنى قد صاوتا جمرتين ملتهبتين ، وتصبب العرق من جبينى ، لما وقع فى نفسى من أن الرجل يعرفنى ، ويعلم ما أسعى إليه ، فأسرعت فى مشيتى حتى نبهت الناس إلىّ بإسراعى ، فجعلوا ينظرون إلى متعجبين من عجلتى ، وكلما رأيت ذلك منهم ازددت عجلة ، كأنى الجواد الأصيل يقرع بالمقارع ليقف ، وكلما أحس وقعها طار جرياً ، حتى إذا ابتعدت وقفت ، ووجدت راحة الخلاص من الإثم ، كما يجد الغريق راحة الوصول إلى الهواء ، ومشيت لا أعرف لى وجهة ، فعاد الشيطان يوسوس إلىّ ، فثارت الرغبة فى نفسى كرة أخرى ، وندمت على أن أضعت هذه الفرصة التى انتظرتها دهراً مديداً ، وفكرت فيها مسهداً ليالى طوالا ، وقطعت من أجلها قفراً وخضت بحراً ، ومشيت من مشرق الشمس إلى مغربها ، فعدت وجعلت أدور حول سور الحديقة ، وقلبى يكاد يمزق بوجيبه جدار صدرى ، وكان اليوم يوم أحد ، فرأيت غوانيها من خلال السور قاعدات باديات الفاتن أو مضطجعات أو منبطحات على الكلأ ساحرات بالمقل النواعس ، وبالسوق والأخاذ ، فكدت أجنّ ، ولا تنسوا أنى لا أزال أعتقد أن الحديقة هى (أزبكية المنفلوطى) ...

وشددنا أشداقنا كيلا يفلت الضحك منا ، ومضى فى قصته .

قال : ورأيت على مقعد شاباً وفتاة ، وهما يتناجيان ، وعلى وجهيهما من ظلال الحديث ، مثل ما يكون على وجه البحيرة الساكنة من شعاع القمر ، وقد تدانى الرأسان ، والتفّت الأيدى بالمناكب ، وتعارض الساقان ، وأحاطهما بجناحيه إبليسُ الهوى ، فجن جنونى ، ودفعتنى موجة الانفعال التى ماجت فى نفسى ، فأقدمت حتى إذا ضعفت الموجة وماتت ، كما تموت أمواج البحر وسط اللجة ، ألفيتنى عند الباب ، فوقفت لا أدرى ماذا أعمل ، وتخيلت كأنى قد أقمت على عمود فى رحبة القرية والناس كلهم ينظرون إلىّ يقولون : هذا الذى دخل الأزبكية التى لم يعرف (المنفلوطى) من تحديدها إلا أنها فوق الثريا وتحت السماء ، وتمنيت من الخجل أن أغوص فى الأرض وأحسست أن الدنيا تدور من حولى ، ولم ينقذنى إلا رجل دخل فتوسط الباب الدوار ، فدفع (قرش تعريفة) فأداره له البواب حتى صار فى الحديقة ، فصنعت صنيعه وأنا لا أعقل ما أصنع ...

جُلْت فى الحديقة فوجدت نساء من كل لون وجنس ،

ولـكني كنت كمن ألق في الماء قبل أن يتعلم السباحة ، فلم أدر كيف السبيل إليهن ، وحاولت أن أتذكر ما قرأت من القصص وماذا يعمل أبطالها في مثل هذا الموقف ، وما حفظت من أشعار الغزل ، فلم يخطر على بالي إلا أبيات (سألت الله يجمعني بسلمى) فقد كانت حالي كحال هذا الشاعر ، أرقب أن تجيء إحداهن فتأخذ هي بيدي وتجرّني إليها ، ولـكني لم أر غرفاً ولا مخادع ، ثم وجدت بناء في الحديقة فعلمت أن المخادع والغرفات فيه ، وبقيت إلى المساء ، أدور لا أفكر في طعام ، ولا أشكو التعب ، حتى إذا قيل اخرجوا ستغلق الحديقة ، خرجت وما أظن أن على ظهر الأرض إنساناً أخيب مني …

وجعلت أعود إليها ، كل يوم ، فلما كان بعد ثلاثة أيام ، وكنت قاعداً على مقعد وأمامي امرأة قصيرة الثوب ، عارية الساق قد رفعت رجلا على رجل ، فأبدت ما أحسست به كالبارود في أعصابي ، وجعلت أنظر إليها ، علّها تلتقي بصرها عليّ ، فأغمزها بعيني — وقد فكرت في ذلك الليلة البارحة كلها ، ورأيته هو الطريق إليها ، بعد ما أعياني الوصول ، وجربته أمام المرآة حتى حسبتني أتقنته — والتفتت إليّ فغمزت بعيني ، فإذا بها تشمخ بأنفها ، وتقوم فتمضي وعلى وجهها مثل أمارات الاشمئزاز … وسمعت ضحكا من ورائي فتلفت مذعوراً ، فإذا أنا بشاب على رأسه كمّة بيضاء يلبس (قفطاناً) يبدو عليه أنه فلاح ، تلوح عليه سيمياء الفقر ، ورأى ذعري فقال : « إزّيك » . قلت : « كُشْ رَن » ففهم أني غريب ، وأني عراق . فقال : « عجبتك ؟ » فاستحييت أن أجيب . فقال الخبيث : « ليه ؟ انت مكسوف ؟ يا تكسفشي ! تعال أودّيك واحدة أحلى منها » .

إنـكم لا تستطيعون أن تتصوروا ماذا صنعت بي هذه الـكلمة وأنا الذي عاش عمره يشتهي أن يشم ريح امرأة من مسافة فرسخ وتشجعت فقلت له بصوت مخنوق : « شُلُونْ ؟ » . قال : « شلون يعني إيه ؟ تعال معايا . تعال » وأخذ بيدي وأخرجني من الحديقة ، وقال : « تحب ناخد تاكسي ولاّ نركب الترام؟ » وكنت نافد الصبر ، مجنون الرغبة ، فقلت : « تاكسي » . ولو كانت طيارةٌ لركبت إلى ما يأخذني إليه طيارة ، ولم أسأله إلى أين ، حتى نزلنا من السيارة ، فسألت السائق : « كم تريد » ؟

قال : « ثلاثين قرشاً » فارتمت لحظة ولـكني لم أبال ، ونقدته الأجرة ونظرت فإذا الذي بقي في جيبي اثنان وعشرون قرشاً ، وسائر فلوسي عند الفندق . نفقة الشهر كله خمسة عشر جنيهاً …

قال الشاب : « إيدك على جنيه بأه » . قلت : « جنيه ؟ »

قال : « أمّال ؟ دي بنت ثماناشر ، زي الأمَر » . فنظرت هنا وهناك أبغي مهرباً ولا أعرف الطريق . فقال : « مالـكشي مزاج ولا إيه ؟ » . قلت : « في وقت ثاني » . قال الخبيث : « على خاطرك . هات تعبتي بأه ! » فأعطيته خمسة قروش ، ولم يحب أن يفلتني قبل أن ينتف ريشي فعاد يحدثني حديث الرجس ، وقال لي إن عنده بنات أخر ، ولـكنْ لـكل ثمن ، فبنت مصرية سمراء كأن عينيها عينا غزال شارد ، وبنت شامية من صفتها كذا ، وبنت عراقية من بلادنا من نعتها كذا ، وبنت رومية كأن جسمها العاج المشرب بعصير الورد ، وكان شعرها أسلاك الذهب ، تسقي من فمها خمراً ، ومن مقلتها سحراً ورآني أرتجف من الانفعال ، ورأى وجهي شاحباً ، فقال : هي بنت بيت « مش من دول » لا تأخذ فلوساً ، لأن أباها من كبار أصحاب المصارف ، ولـكنْ للبواب جنيهان ليغض النظر ، وله هو جنيه ، واثنان لوصيفتها لتـكتم الأمر ، وتحفظ الباب …

وسحرني الملعون . فقلت : « لا بد لي من الذهاب إلى الفندق لآتي بالفلوس » قال : « هيا بنا » .

وتسلم الجنيهات الخمسة ، وأدخلني عمارة فخمة في شارع الملـكة نازلي ، فأصعدني إلى الطبقة السابعة ، وأشار إلى باب فقال : إنها هنا . ولـكنه لا يستطيع أن يدخل معي ، فهو ينتظرني عند البواب ، ونزل بـ « المصعد » الذي صعدنا به ، وأقدمت مضطرباً فقرعت الباب بيد ترتجف ، ففتحه لي خادم أسود مسنّ ، ووقف ينظر ما أقول له ، ووقفت مبهوتاً فقال : « إيه ؟ عاوز مين ؟ » فسكت . قال : « الله ! إنت عاوز مين ؟ » قلت : « جورج » ، وكان هذا هو الإسم الذي خطر على لساني . قال « جورج ؟ ! دا منزل أحمد بك صالح المحامي » وأغلق الباب في وجهي ، ولم أجد المصعد فنزلت على الدرج ، من الطبقة السابعة ، فلما بلغت الباب لم أجد الشاب ولا البواب !

(طبق الأصل) **علي الطنطاوي**